الفصل السادس

نظرة فاحصة

(١) كيف تكونت الأوديسا

سلك النقاد بإزاء الأوديسا نفس النهج الذى سلكوه بإزاء الإلياذة فوصلوا من بحوثهم إلى نتائج إن لم تكن مماثلة للنتائج الأولى فمن الممكن أن توازن بها نسبياً .

وكما أنه لم يتنبه أحد من الأثينيين إلى انتحال شىء من الإلياذة ، لم تفطن كذلك أية عقلية من العقليات البارزة فى ذلك العصر إلى أن بعض أناشيد الأوديسا مضاف ، ولعل عذرهم فى هذا هو تماسكها الرصين الذى يلفت الأنظار والذى كان ستاراً حال بين تلك العقليات الممتازة و بين إدراك الحقيقة . ومن آيات هذه الغفلة أن أرسطو نفسه كان يؤمن بأن هذه القصيدة هى بحذافيرها لهوميروس . وإليك عباراته فى هذا الشأن :

« إن هوميروس الذى فاق جميع الشعراء الآخرين فى كل شىء قد امتاز على الأخص ـ سواء أكان ذلك ناشئاً من معرفته بالفن أم كان فطرياً فيه ـ بإدراك ما يؤلف وحدة القصيدة ، فعند ما أنشأ الأوديسا لم يتخذ كموضوع لها كل حوادث حياة أوديسوس . فهو لم يعرض مثلاً لحادثة جرحه الذى أصابه فوق جبل البرناسوس ولا لحادثة الجنون الذى تصنعه حينما كان الجيش يستعد للرحيل إلى تروادة لأن أية هاتين الحادثتين ليست بحالة توجب نشوء الأخرى عنها بالضرورة ، بل ولا بالرجحان . و بدلاً من ذلك ألف كل الأوديسا حول ماندعوه عملاً واحداً ، وكذلك الحال بإزاء الإلياذة »[1] .

---

(1) Aristote, Politique, ch. VIII.

لا ريب أن هذا النص يدل على أن فكرة الانتحال فى الأوديسا لم تكن تخطر لأحد من نقاد العصر الأثينى ، أما نقاد العصر الاسكندرى فقد لاحظ بعضهم أن فى قليل من أناشيدها مناظر دخيلة أضيفت إلى القصيدة البدائية كما أشرنا إلى ذلك فى الفصل السالف . وأما نقاد العصور الحديثة فقد انقسموا على أنفسهم على النحو الذى رأيناه فى الإلياذة فوقف « ِنتْش » و « ميلير » فى صف أنصار الوحدة الهوميروسية كما كانا هناك . ومن أهم الاعتراضات التى وجهت إلى هذا الرأى ما يلى :

(١) إن الأناشيد التيلياخوسية تحول دون التماسك والوحدة اللذين هما أكبر مميزات الشعر البدائى ، وفوق ذلك فإنه لكثير على هوميروس أن يخصص أربع أناشيد كبيرة ليافع فى مقتبل العمر كتيلياخوس .

(٢) إن أشد أنصار فكرة الوحدة تعصباً لرأيهم لا يستطيعون أن يجحدوا أن بعض مناظر الأوديسا والأنشودة الرابعة والعشرين منها مضافة فى العصور المتأخرة ، ومتى قبلوا هذا المبدء فلا يستطيعون المعارضة فى إمكان تسرب الانتحال إلى البعض الآخر ، وبالتالى لا يستطيعون إنكار لحوق تعدد المصادر بهذه القصيدة .

غير أن أنصار فكرة التعدد لا يجدون فى الأوديسا ما وجدوه فى الإلياذة من التنافر الذى عثروا عليه بين بعض أناشيدها بفضل بحوثهم وموازناتهم ، لأن أكثر أناشيد الأوديسا مرتبط بعضه ببعض ارتباطاً يجعل من العسير كشف كثير من التفكك أو عدم الانسجام . ولهذه الصعوبة التى قامت فى وجوه نقاد الأوديسا لم تكتب فى نقدها بحوث منهجية كالتى كتبت فى نقد الإلياذة .

ومهما يكن من شىء فإن الرأى المعتدل من بين تلك الآراء هو رأى الأستاذ الألمانى « كرشهوف » الذى نجمله فيما يلى :

إن الأوديسا تنقسم إلى ثلاث مجموعات الأولى ما تشمل قصة أوديسوس وهى من الأنشودة الخامسة إلى أواخر الثالثة عشرة مع بعض الإضافات .

الثانية هى ما تحتوى على عودته إلى إيثاكيه ، وهى من أواخر الأنشودة الثالثة عشرة إلى نهاية القصيدة .

الثالثة هى التيليماخوسية وهى الأناشيد الأربع الأول .

وقد أقر الأستاذ كروازيه هذا التقسيم ولكنه لم يجار صاحبه فى طريقة التكون التى يخيل إليه أن مؤلفى الأوديسا سلكوها فى تأليفهم إياها ، بل سلك لذلك طريقاً آخر مؤداه أن أكثر المجموعة الأولى[1] بدائى وإن كان ذلك لا يمنع من القول فيها بإضافات كثيرة ولا سيما فى الأنشودتين العاشرة والثانية عشرة . والسبب الذى يحمل هذا الأستاذ على الميل إلى بدائيتها وإلى نسبتها إلى شاعر واحد ـ قد يكون هو « هوميروس » ـ هو أن القارىء كثيراً ما يعثر بين أناشيدها وبين الأناشيد البدائية فى الإلياذة على صلات تلفت النظر .

أما المجموعة الثانية[2] فقد وضع أكثرها شاعر آخر قديم أيضاً بقصد استمرار الحوادث وتتابع القصة ، ولكن هذا الشاعر لم يكن فى مثل عبقرية الأول ولم يمنح من خصوبة الخيال ولا من العظمة الطبيعية مثل ما منح ، وإن كان شاعراً قديراً جديراً بالإعجاب يمتاز على الأخص بتصوير الأخلاق المختلفة ورسم الطباع المتباينة . وقد قصد صاحب هذا الرأى بنسبة أكثر هذه المجموعة إلى شاعر واحد أن بعض أناشيدها من وضع شاعر آخر أو عدة شعراء ، وذلك كالأنشودتين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين وكبعض إضافات أخر .

أما المجموعة الثالثة[3] فقد ألفها فى رأيه شاعر ثالث متأخر ، والسبب الذى حمله على إضافتها إلى الأوديسا القديمة هو أنه رآها أقصر من الالياذة ، وكانت فكرة تسوية هذه القصيدة بسالفتها تملك عليه كل شىء فأضاف إليها هذه الأناشيد ، لتتساوى معها وإن لم تتحقق

---

(١) يقصد بالمجموعة الأولى هنا المجموعة الثانية فى الوضع الراهن ، وهى من الأنشودة الخامسة إلى نهاية الثانية عشرة .

(٢) يقصد بالمجموعة الثانية المجموعة الأخيرة ، وهى من الأنشودة الثالثة عشرة إلى نهاية الأوديسا .

(٣) « « الثالثة الأناشيد الأربع الأول .

له هذه الغاية وقد حاول جهد طاقته أن يوجد بين هذه المجموعة و بين المجموعتين السالفتين من الانسجام ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومستوى هذه المجموعة الأخيرة فى رأيه أخفض من مستوى المجموعتين الأولى والثانية ، ولكن هذا المجهود الذى قام به الشعراء فى ربط بعض تلك المجموعات بالبعض الآخر قد حقق الوحدة فى الأوديسا وجعلها تبدو أكثر تماسكاً من الإلياذة .

(ب) لمحة خاطفة عن الأوديسا

تصغر الأوديسا فى الكمية الشعرية عن الإلياذة قليلاً كما أبنا ذلك فى موضعه من الفصل الماضى . ويخيل إلى كثير من النقاد أن أسلوب الأوديسا أكثر من أسلوب الإلياذة رصانة ورسوخاً ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن أسلوب الإلياذة يفيض قوة وحيوية وتدفقاً . أما الأوديسا فهى هادئة ساكنة كأنها تسير بخطى متثاقلة تشبه خطى الشيوخ المتحطمين ، وهى خالية تقريباً من تلك الفصول الجبارة التى تستولى على القلوب ، وتهيج الانفعالات النفسية ، التى أفعمت بها الإلياذة من أولها إلى آخرها ، إلا أن الأوديسا تمتاز بأنها أقرب إلى الحقائق الواقعية من الإلياذة إذا استثنينا ظواهر ما تموج به صفحاتها من خرافات وأساطير . ويلاحظ بصفة عامة أن المؤلف كان يرمى فى الأوديسا إلى الضبط والتقرب من الواقع بقدر المستطاع ، أما فى الإلياذة فقد كانت مهمته التجميل الأسلوبى ، والإزهار الشعرى ، وإبلاغ زينة الجمل والعبارات أقصاها .

ومما لفت أنظار النقاد المحدثين إحكام التماسك وتحقق الوحدة فى الأوديسا أكثر منهما فى الإلياذة إلى حد أن صعب على الباحثين كشف التنافر بين بعض أناشيدها بهيئة تعينهم على إبداء آراء قاطعة فى كيفية تكونها تشبه آراءهم بإزاء الإلياذة . ومن ذلك أيضاً أن حوادثها — وإن كانت مركزة — هى غير شديدة الانضغاط المغالى الذى يصعب مهمة القارىء ويجعل متابعة القصة والاحتفاظ بها مرتبة فى الذاكرة أمراً عسيراً وتلك هى إحدى ميزات الإلياذة كذلك .

غير أنه ينبغى أن نعلن أن الأوديسا أقل تنوعاً من الإلياذة ، ولسنا نعنى بالتنوع مظاهره الخارجية فهى هنا أكثر منها هناك ، إذ لا يكاد مؤلف الأوديسا ينزل بنا فى جزيرة حتى يبحر بنا منها إلى غيرها ، ولا يكاد يرينا فى أنشودة عجيبة من العجائب حتى يطلعنا فى الأنشودة التالية على أخرى تختلف عن الأولى فى طبيعتها ومظهرها وأفعالها ونتائجها ، ولا يوشك أن ينقذ بطله من هُوَّة حتى يُطَوِّحَ به فى أعمق منها ، ولا ينجيه من كارثة إلا ليقذف به بين براثن نكبة أفدح وأخطر من سالفتها . لا نقصد هذا اللون من التنوع فهو موفور فى الأوديسا ، وهو لا بد منه سواء أراده المؤلف أم لم يرده ، لأن طبيعة القصة التى ترويها الأوديسا تقتضيه وتحتمه ، وإنما نعنى التنوع الداخلى العميق الذى تكتظ به أناشيد الإلياذة من اختلاف المشاعر ، وتباين الأحاسيس ، وصعود نتائج المعارك وهبوطها ، ورجحان كفة الهيلينيين تارة وكفة التروادبين أخرى وما شاكل ذلك مما يعتبر فى الإلياذة أشبه أن يكون نوعاً من الإعجاز ، لا سيما وأن تلك الخمسة عشر ألف بيت وخمسمائة تروى حوادث خمسة أيام فقط ، وهذا من شأنه أن يجعل التنوع صعب المنال و يشهد لمن استطاعه بالعبقرية البالغة حد الندرة .

ويرى الأستاذ كروازيه أن المؤلف البدائى للأوديسا ليس هو المؤلف البدائى للإلياذة ، بل هو شاعر آخر جاء بعد الأول بزمن كاف لتغيير التفكير والروح الاجتماعية . ومن آيات ذلك عنده أنه لو كان مؤلف الأناشيد البدائية فى القصيدتين واحداً لرأينا فى الأوديسا روحه الثائرة ، وعواطفه الملتهبة ، وأسلوبه الحاد ، وعباراته القاسية ، ومعانيه العنيفة التى تفيض بها الإلياذة ، ولا يمكن أن يمنع من هذا أن الأوديسا ليست ملحمة حربية كسالفتها ، ففيها من الحوادث ما كان يمكن أن يُؤَدَّى بذلك الأسلوب ، وأن تشع من جوانبه تلك العواطف ، ولكن ذلك لم يكن ، وأكثر من هذا أنه لو كان مؤلف الإلياذة هو الذى أنشأ الأوديسا لما كرس كل هذا القسم الطويل الأخير منها لتلك الحوادث الضئيلة التى شغلته ، أو قل لما أضاعه بين الإقامة عند الراعى والثواء فى القصر متخفياً ، بل لطاف بهذه الشؤون الثانوية طوفاناً عاجلاً ، وكرّس الباقى لوصف المعركة التى

اشتعلت بين أوديسوس وخصومه الأدعياء وصفاً حربياً يثير الشعور ، ويحرك العاطفة ، ويهز القلب ، ويفيض بأحاسيس البطولة ، ويشعر القارىء بذلك الروح الثائر الذى طالما شعر به فى الإلياذة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . ولعل السبب فى هذا التباين هو تبدل روح العصر ، والانصراف عن التحمس للقتال ، واستبدال العنف بالانعطاف نحو طريق الحِيَل ، فلم يجد المؤلف الثانى بُدًّا من مجاراة عصره ، فأسهب فى وصف النفوس المختلفة ، ورسم الطباع المتباينة ، وإحكام الأحابيل والفخاخ ، وإتقان الوسائل الناجحة لتحقيق الغاية القصوى وهى انتقام أوديسوس من أعدائه :

وهذا كله يؤيد اختلاف المصدر . ولاريب أن أكثر نقاد العصر يعتنقون هذا الرأى وإن كان غير مبتكَرٍ لهم ، وإنما هو من مبتدعات العصر الاسكندرى ، فقد جحد فى ذلك الحين « زينون » و « إيلاَّنيكوس » نسبة الأوديسا إلى هوميروس ، وشذا فى هذا الرأى عن أهل عصرهما شذوذاً ترتب عليه أن دُعِيَاهُمَا وأنصارهُمَا من أجله بـ « كوريزنت » أى المعتزلة .

ويضيف الأستاذ كروازيه إلى ملاحظته هذه ما مجمله : ولكن هل معنى هذا أن الأوديسا تعوزها العظمة ؟ كلا ، فليس هذا رأينا وإنما هى تحتوى على نوع خاص من العظمة متسق الأجزاء يكاد الانسجام يربط أوائله بأواخره ، ويوشك الهدوء أن يدثره بعطف فضفاض شفاف يزيد رونقه بهاء ولا يحول دون ظهور جماله الطبيعى .

فإذا كانت الإلياذة تأسرنا وتملؤنا إعجاباً ، وتستولى على نفوسنا فتثيرها بقوة ، فإن الأوديسا تسمو بنا فى وداعة وهدوء إلى مستوى شعرى يفيض بالسلام والسكون .

ليس ما ذكرناه هو كل ما بين هاتين القصيدتين من فروق جوهرية وإنما هناك فروق كثيرة أخرى تسترعى الانتباه . فمن هذا مثلاً أن الإلياذة مليئة بالتشبيهات كما أشرنا إلى ذلك فى موضعه ، على حين يندر هذا النوع فى الأوديسا ، وليس أدل على ذلك من خلو الثلثمائة بيت الأولى من أنشودة المعركة بين أوديسوس وخصومه خلواً تاماً من التشبيهات ، مع أنه لو كان هذا المنظر قد مر فى الإلياذة لألفينا فيه عدة تشبيهات ساحرة .

على أن هذه التشبيهات القليلة التى يعثر عليها القارئ فى الأوديسا من حين إلى حين ليست من نوع تشبيهات الإلياذة ، فبينما يحس القارئ بأن مؤلف الإلياذة يستخدم التشبيهات للإطناب والتفخيم ، أو للتزيين والتجميل ، يرى أن مؤلف الأوديسا يستعملها لتوضيح الموضوع و إبراز المشبه فى صورة ترغم الذاكرة على الاحتفاظ به ، و يشعر أنه تشبيه فنى دقيق. فمثال ذلك تشبيه المؤلف أوديسوس — حين يفقأ عين الكِكْلوپيس بالحديدة المحماة — بنجار يدير مثقبه فى خشبة السفينة ليثقبها .

وكذلك الحال فى القصيدتين بإزاء الوصف . فبينما نراه فى الأولى قد سيق لسحر النفوس وفتنة القلوب لا أكثر ولا أقل ، نشاهد أنه قد قصد به فى الثانية إبانة التفاصيل ، و إيضاح الدقائق مجاراة لروح العصر التى كان حب الاستطلاع قد غلب عليها إلى حد عدم الرضى عن المُجْمَلات .

ومن هذه الأوصاف التى امتازت بها الأوديسا تصويرها الدقيق للطبيعة ومظاهرها المختلفة وألوانها المتباينة : بحارها وجبالها ، وسهولها وحزونها ، وتلالها وأوديتها ، وحقولها ومروجها ، على عكس الإلياذة التى استحال عليها وصف الطبيعة دون التشبيه بها كما أشرنا إلى هذا فى حينه ، وذلك لانحصار موضوعها فى معسكر الهيلين وفى مدينة تروادة المحاصرة .

ومما تمتاز به الأوديسا ذلك الفن القصصى المصحوب بخصوبة فى الخيال تكاد تكون منقطعة النظير ، فهذه السلاسل الطويلة التى تروى حوادث أوديسوس فى رحلته لا تشبه تلك المناظر الحربية التى رسمت فى الإلياذة ، و إنما هى تشبه قصص الشرقيين المفعمة بالغرائب والمدهشات ، ولكن جمال هذه القصص الساذجة فيما يرافقها من عواطف حقيقية ومبادئ أخلاقية . ومن أمثلة ذلك أسطورتا « الكِكْلوپيس » و « كاريبديس » و « اسكيليه » اللتين إن بدت عليهما الطفولة فإن فى أعماقهما أحاسيس قيمة ومبادئ عالية . وليس هذا فحسب ، بل إن أقدم مجموعات الأوديسا تنقلنا فى تمثل مريح إلى بلاد خرافية حيث نرى زهوراً تفقد الذاكرة ، ونلتقى بإلاهات ساحرات وكائنات مرعبة تتربص الدوائر بالمسافرين لتلتهمهم أو لتسحق رؤوسهم . ولا جرم أن هذه القصص المفزعة الساذجة كانت تسحر ذلك

الخيال الهيليني الشاب الذى كان يحسن تذوقها كما يحسن الشرقيون تذوق قصص سيف بن ذى يزن ، وألف ليلة وليلة وما إلى ذلك من الأعاجيب والخرافات .

بيد أن قصص الأوديسا لم تكن قاصرة على مهمة التسلية أو إرضاء الأخيلة ، وإنما هى تشتمل ـ إلى جانب ما قدمناه من فوائد ـ على معارف جغرافية لاينبغى إهمالها أو الاستهانة بها.

ويجمع كثير من النقاد على أن هذه الجزر المترامية الأطراف لا يمكن أن تكون من خلق خيال المؤلف وحده ، وإنما هى منحدرة إليه فى رأيهم من مصدر فينيقى عن طريق بعض البحارة الذين جلبوا فى عصور غابرة إلى بلاد الهيلين قصصاً غريبة ، ومستندات محددة على ما شاهدوه إبّان رحلاتهم البحرية المتكررة ولقد تنبه القدماء إلى هذا فأعلن استرابون فى وضوح أن الفنيقيين كانوا مرشدى هوميروس[1] . ولقد أضاءت هذه العبارة طريق البحث أمام العالم الفرنسى العصرى الأستاذ فكتور بيرار «Viceor Bèard» فتابع هذه الفكرة فى عدد من مؤلفاته ككتب (١) « الفينيقيون والأوديسا » . (٢) « رحلات أوديسوس البحرية » . (٣) « نوسيكا وعودة أوديسوس » وهلم جراً .

ويمكن أن نجمل هذه الفكرة فى أن مؤلف الأوديسا قد نسج خيوط جمالها على أصل فينيقى جاف وإن كان متينا . وبيان هذا أن الهيلين قد استولوا على العناصر الأولية والأسس البدائية لتلك القصص الخيالية الفاتنة ثم هلّنوها وأنشئوا منها ذلك الإنتاج الهيليني الغنى الذى يعد بحق عملا فنياً خطيراً وهو الذى يدعى بالأوديسا .

ويرى هذا الباحث أن تلك الجزر التى تحدثت عنها الأوديسا ليست خرافية ولا من مبتدعات الخيال ، وإنما هى قد وجدت حقاً وشاهدها الفينيقيون إبان أسفارهم التجارية وسجلوها فى محفوظاتهم ثم رووْا أوصافها فى أحاديثهم الشعبية مع الهيلين ، فأخذ هؤلاء الأخيرون يتناقلون أعاجيبها الأصلية ، ويضيفون إليها من مبتكرات أخيلتهم ماينميها حتى جاء هوميروس فاستغلها فى قصص تلك الدرة العصماء ، ولكن بعد أن أضاف إليها هو أيضاً ماسمحت به عبقريته الشعرية الممتازة .

---

(1) Strabon, III , P. 150 .

وأكثر من هذا أن الأستاذ بيرار يعين لنا عدداً من تلك الجزر فينبئنا بأن كهف كالبسو يوجد غربى مدينة ثيوته أو (سِبْته) على شاطئ مراكش الإسپانية ، وأن مقر الـكـكلوپيس يوجد فى إيتاليا على مقربة من نابولى ، وأن جزيرة اللستريجون توجد فى شمال سَرْدِنْيا بالقرب من مضيق « بونيفَشْيو » وأن جزيرة « كِرْكيه » على الشاطئ الغربى الإيتالى عند طرف بطيحة پُنْتان ، وأن جزيرة الفيكيان هى كِرِكِره «Corfou» .

ومن عجائب ما كشفت عنه البحوث الحديثة فى هذا الشأن أن الأقدمين قد فطنوا إلى مواقع أحداث الأوديسا وعينوا كثيراً منها فكانوا طليعة هذا التحقيق الهام . ومن أبرز أولئك القدماء الذين اهتدوا إلى هذه النتيجة المؤرخ الإغريقى ثوكيديدس[1] «Thukididès»

وأخيراً ينبغى أن نقرر أنه مما لا يصح إغفاله أن الدين الهيلينى فى الأوديسا أرقى وأنقى منه فى الإلياذة ، إذ لا يجد القارئ بين سطور الأوديسا تلك الدنايا والرذائل مجسمة فى آلهتها كما تجسمت بشكل واضح فى آلهة الإلياذة . ولا ريب أن هذه الظاهرة تدل على أن العقيدة الدينية كانت قد تقدمت تقدماً واضحاً فى أثناء الزمن الذى يقولون إنه فصل بين القصيدتين .

وليس تطور الدين أو غير الدين عند الهيلين فى وقت أيا كان قِصَرُهُ بالشىء الغريب ، لأن عقلية هذه الأمة مندفعة إلى التطور والرقى بفطرتها اندفاعاً ظهر أثره عملياً فى حياتيها الاجتماعية والأدبية ، ونظرياً فى إيقان فلاسفتها بالسير المتواصل نحو الـكمال .

(1) Thucydide, I , P. 25.